سيروان أنور مجيد

جامعة ملايا – ماليزيا

فلسفة الاستراتيجيات التضامنية في الخطابات القرآنية

الباحث: سيروان أنور مجيد الكوردي/ طالب دكتوراه بقسم اللغة العربية في جامعة ملايا– كوالالامبور–ماليزيا

كلمة لا بدّ منها

لا شكّ في أنّ الاستراتيجية التضامنية هي من إحدى الاستراتيجيات التي تعضّد البؤرة التواصلية بين الباثّ والمتلقي. ولا ريب في أنّ القرآن الكريم ملؤه تجسيد أفضل استراتيجيات للخطاب، ولاسيما ذلك الخطاب الذي يتكّئ على أرضيّة الاحترام والتبجيل واستدرار المتلقي؛ قصد إقناعه بالحكمة كما يعلّمنا الخطاب الربّاني.

هذا، وإنّ جوهر الاستراتيجية التضامنية تتّكئ على التعامل الأخلاقي من قبل المرسل؛ بغية تأصيل النهج الاحترامي بين الباث والمتلقي، لتزيد اللحمة التواصلية بينهما. ومن هنا بإمكان المخاطب فتح مغاليق قلوب المرسل إليه.

ولعلَّ القرآن الكريم قد تجسّد مضامين وماهيّات فلسفة الاستراتيجية التضامنية؛ لما آسر القلوب قبل العقول، وفتح الكثير من قلوب المعاندين؛ واعتنقوا الإسلام... حتى أنّ أشد المعاندين للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلّم) أيام البعثة النبوية الأولى (الوليد بن المغيرة) اعترف بروح فلسفة هذه الاستراتيجية حينما تلى عليه النبي الكريم، آيات من الذكر الحكيم، معترفاً الخطاب الربّاني في عبارات جزلة، بحيث أضحت كلماته عنوان الاعترافات من قبل المشركين، حينما قال : "إنّ به لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمرٌ، وان أسفله لمغدقٌ، وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه".

حتى أنّ خالق السموات السبع، حينما يرسل نبيّه موسى (عليه الصلاة والسلام) مع أخيه هارون إلى أشد فراعنة الزمان، يعلّمه ماهيات الاستراتيجية التضامنية؛ قصد اجتذاب قلبه؛ مؤكّداً ذلك في تنزيله الحكيم :(" اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى")[1].

وتأسيساً على ما سبق ذكره، فإنّ لهذا العنوان علاقة صميمة بمحاور المؤتمر، سيّما في ترجمة الشواهد القرآنية في العلوم العربية؛ فضلاً عن أنّ هذا العنوان يتقاطع مع البحث القرآني في التخصصات الإنسانية والتطبيقية...كما وأنّه يجد بدّا، لتطوير هذا النوع من الدراسات في المؤسسات التعليمية الأولية والعليا.

أما أهداف هذه الدراسة فيمكن أجمال أبرز نقاطها في:

1- تأصيل هذا المنهج في الدراسات القرآنية المعاصرة؛ فضلاً عن وضع نواة، لتنظير هذا النوع من الدراسة في الدراسات اللغوية المعاصرة.

2- إن ترجمة هذه الاستراتيجية التضامنية من قبل الداعي –من خلال تشرّبه لماهياتها في الذكر الحكيم– تمكّنه من تملّك قاعدة دعوية متينة في تأسير قلب المخاطب، وولادة الفلسفة الاحترامية حال اقناع المخاطب، كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، حينما أقنع الشابّ الغيور الذي طلب الرخصة لارتكاب الزنا..

3- تمكين الداعي سلّمية اختيار الحجج مراعاة للسياق والمقام.

4- إذا ما وظّف الداعي مضامين تلك الاستراتيجية بحيثياتها –كما علم البارئ رسله حال تبليغ الدعوة– تولّد عنده فلسفة الترابط المنطقي بالحجج التراتبية، ومن هنا يتمكّن من إبعاد صفة الكراهية والقراءات الخاطئة عند المتلقي، فعنده تتآصر أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع، فتكون، إذ ذاك، أقدر على التأثير في توجيه سلوكه واعتقاد المخاطب، ولكأنه يعاينها رأي العين.

5- إن هذا المنحى هو اتجاه جديد، سواء أكان في اللغويات المعاصرة أم في أقسام الشريعة. فهذه الاستراتيجية قلَّ التطرق إليها، بتلك الآليات المرسومة في اللوحة اللغوية المعاصرة؛ لذا يحاول البحث إعادة قراءة هذا النهج، من خلال أنجع الأساليب اللغوية المعاصرة، التي تتكفل إنجاح ذلك النهج التضامني؛ قصد إظهار زوايا خفية من الإعجاز القرآني إن أمكن.

---

[1] – سورة طه:41.

المطلب الأول: ماهي فلسفة الاستريتيجية التضامنية

إنّ الاستراتيجية التضامنية هي تلك الاستراتيجية التي تعتمد على مبدأ التأدب القصوى. الذي يقوم بها الباثّ لكي يجعل رسالته مسموعة ومقبولة عند المخاطب؛ قصد خلق البيئة التضامنية بين الطرفين، وهذا ما يؤكّده فلسفة اللغة الإعلامية؛ ذلك أن الأوّل ينصبُّ جلّ جهوده في ترسيم تلك الآليات التي تجعل رسالته الدعويّة ذا صيت مقبول عند أكبر شريحة ممكنة من جمهور المتلقّين. فإنَّ اتّباع روح تلك الاستراتيجية تزيد من آلية التفاهم بين المرسل والمتلقي؛ إضافة إلى أنّ المتلقي يحسب نفسه وكأنه جزء من هذا الكلام الموجّه إليه لذلك يلقى قبولاً شديداً عنده؛ لأنّ المرسل إذا ما تمسّك بمضامين هذه الاستراتيجية تمكّن من خلق دائرة الاحترام بينه وبين مستقبل النص، وبذلك يعطي مكانة مرموقة للسامع؛ قصد التواصل والتفاعل الأكثر وهذا ما يزيد من اللحمة التداولية بين الجانبين.

و من هنا، بإمكاننا القول: إنّ الاستراتيجية التضامنية تتفق مضامينها مع مضامين مبدأ التأدّب القصوى واعتبار التقرّب الذي أتى بها "جوفري ليتش" في كتابه مبادئ التداوليات؛ حينما ترجمها في لوحتين[2]:

1- سلبية، وتتلخّص: "قلّل من الكلام غير المؤدّب".

2- إيجابيّة، وتتلخّص في "أكثر من الكلام المؤدّب".

---

[2] - تداوليات الخطاب السياسي: أ.نورالدين اجعيط، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن،ط1، 2012: 153-156.

هذا، ولم يكتف "جيفري ليتس" بهاتين النقطين بل فرّع منها ست قواعد لمبدأ التأدب الأقصى، و قصد توضيع معالم هذا المبدأ، و من ثمّ كيفية تقاطعها مع الاستراتيجية التضامنية نذكرها على عجالة، و كما يأتي[3]:

1- قاعدة اللباقة: ولها صورتان:

أ- التقليل من خسارة الغير، وهذه الصورة هي الأقدر على حفظ مبدأ التعاون ورفع ما من شأنه أن يوسّع الهوّة بين المتناظرين.

ب- الإكثار من ربح الغير، وهو سعي شبيه بالأوّل غير أنّ قوته الانجازية أقوى، بالنظر إلى الفوائد المتحصّلة من ربح المحاور، وفي الأسئلة التي يعمد في المحاورة إلى الابتعاد عن الأمر المباشر.

2- قاعدة السخاء: ولها صورتان:

أ- التقليل من ربح الذات، ولعلّ التوجُّه إلى المعترض بعبارات تشي بنكران الذات جالبٌ للتقرّب منه، ومعينٌ على إظهار الصواب في المسائل الخلافية.

ت- الإكثار من خسارة الذات، فإذا قلّل المناظر من ربح ذاته خسرها، ولا يعدّ هذا الأمر تنقيصاً أو حطّاً من قيمته، ولكنّه أسلوب ينتهج لربح الآخر والتقرّب منه حتى يصير أدعى للإقناع.

3- قاعدة الاستحسان: ولها صورتان:

أ- التقليل من ذمّ الغير، لأنّ في الإكثار من ذلك توسيع للشقّة بين المتحاورين، ممّا يخلّ بقواعد التعاون في حلّ النزاع.

ب- الإكثار من مدح الغير، إذ النفس ميّالة لمن يطريها.

4- قاعدة التواضع: ولها صورتان:

أ- التقليل من مدح الذات، إذ يقتضي التعاون الابتعاد عن إطراء الذات لدفع المعترض للنهوض إلى إنجاز الأمر.

ب- الإكثار من ذمّ الذات، إبعاد كلّي للمدح، وهو أكبر درجة من التقليل من مدح الذات.

---

[3] - المصدر نفسه.

5- قاعدة الاتفاق، ولها صورتان:

أ- التقليل من الاختلاف مع الغير.

ب- الإكثار من الاتفاق مع الغير.

6- قاعدة التعاطف، ولها صورتان:

أ- التقليل من التنافر مع الغير، وهو سلوك تهذيبي يؤمّن للمناظر التقرُّب من المعترض.

ب- الإكثار من التعاطف مع الغير، لضمان التعاون لرفع النزاع والاختلاف.

وتأسيساً على ما سبق، فإنّ هذا المبدأ يشاطر الاستراتيجية التضامنية في زيادة فضاء التواضع والاستحسان من قبل المرسل و المتلقّي، و إذا ما تمسّك الباثّ بهما لحذتئذٍ يتمكّن من تقليص المسافات و الهوّة بين المتكلم و المتلقي، و يزيد من مساحة الاتفاق بين الجانبين؛ مبتعداً بذلك عن التنافر الخطابي وكل ما يزيد من آصرة الانشقاق بين الجانبين، حتى تتولّد نوعاً من الخطاب يكون أعلاه مثمر وأسفله لمغدقٌ، بحيث يكون نهاية الكلام أفضل من صدره؛ لتحقيق أفضل درجةٍ ممكنة من الوظيفة التضامنية، وهذه الأرضية لا تأتي جزافاً وإنّما على المرسل اقتناص مفاهيمها، ومن ثمّ ترجمتها في السياق الذي يقتضيه؛ لكي يبلغ الخطاب مقبولية أكثر، و النص المكتوب انقرائية أسرع من قبل المتلقي؛ وتترجم خلالها الكفاءة الذاتية في أرض الواقع، بحيث يجسّد الشطر الأول من مقولة عامر بن عبد القيس خير تجسيد، حينما يقول: " إنّ الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان"4.

ومن هنا، بإمكاننا القول إن تجسيد ترجمة مفاهيم الاستراتيجية التضامنية يحتاج إلى توخّي الحيطة والحذر لولادتها في أرض الواقع، فهي ليست مستحيلة الوجود، ولكنها نستطيع القول: إنّها محاطة بهالة من شوكة الآليات اللغوية، وهذا ما لا يستطيع فعله كل فرد وإنما بحاجة إلى لاعب لغوي يجيد اللعب بتلك الآليات في مواطنها، ومن ثمّ خلق تلك البيئة التضامنية. وعلى هذا، يعرّفها أحد الباحثين المعاصرين الاستراتيجية التضامنية على أنّها تلك "الاستراتيجية التي يحاول المرسل أن يجسّد بها درجة علاقته بالمرسل إليه ونوعها، وأن يعبّر عن مدى احترامه لها ورغبته في المحافظة عليها، أو تطويرها بإزالة معالم الفروق بينهما، وإجمالاً هي محاولة التقرّب من المرسل إليه، وتقريبه".5

---

[4] – اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي: طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998م: 252.

[5] – استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية: عبدالهادي بن ظافر الشهري: 257.

وانطلاقاً من هذا، فالدّاعي المتضلّع بفنون البلاغة والأسلوبية اللغوية عليه أن يجيد التعامل الحاذق مع تلك الاستراتيجية وإلا انقلب السحر على الساحر، كأن يأتي بالأدلّة القرآنية في مواطنها ويعمل على تيسير بيئةٍ تضمن السيطرة على فؤاد الآخر، بحيث يمكن فتح قلوبه قبل عقوله، والابتعاد عن تلك الجزئيات مع أصحاب المذاهب الأخرى، التي لا تسمن ولا تغني من جوع؛ بل العمل على الجزئيات يزيد الطين بلّة، ويبعد قلب المذهب الآخر إلى ما لا يحمده النقاش.

هذا وأن مخاطبة الداعي للجمهور عليه أن يتّسم بالصدق والتأدّب لما يقول، وأن يتحدّث من مبدأ القوة. أي: عاملاً بما يقوله لكي تجد خطاباته آذاناً صاغية. وإذا لم يستشف منه استثمار هذه الآلية ستنعكس عليه سلباً كمثل الإعلاميّ حال توظيف عناوين إعلامية في غير محلّها، فعلى سبيل المثال لا الحصر، حينما يعنون الصحفي لرئيس لا حول له ولا قوّة في السلطة هذا العنوان:"لو بقي صدّام لكانت فلسطين محررة وإن كان في زنزانة الأمريكان". فلو سمع الفلسطيني العارف بأبجديات السياسة، والمنصف في طرح أفكاره يتبيّن هراء هذا العنوان، لأنّ (صدّام حسين) سوى بيع الشعارات البرّاقة في أوج عصره لم يستطع تحرير جزء بسيط من فلسطين، وكيف إذا كان في زنزانة الأمريكان...! كما وأن المواطن السوري لا يتضامن مع ذلك العنوان الخبري، الوارد في الصحيفة **"واشنطن تمسك العصا من منتصفها.. وستغير موقفها إن ثبت استخدام الأسد لـ«الكيماوي» "6**؛ لأنّه قد سئم من تلك العبارات الطنّانة الجوفاءة، ويعرف جيّداً أن أمريكا لا تخطو شيئاً إلا وكان لها فيه مصلحة، فإمّا إمساك العصا من المنتصف وحتى على لسان أوباما الرئيس مجرّد هراء لا غير.

وعليه، فالداعي إذا أراد نجاعة خطابه في ترجمة هذه الاستراتيجية يستوجب منه أن يراعي السياق و المقام ويوظف آليات تلك الاستراتيجية في مشاهده الدعويّة؛ محاولاً خلالها خلق أرضية تضامنية مشتركة بينه وبين جمهور المتلقي لتكون الأغراض مشتركة ومتساوية فيما بينهما، و لأنّه وكما يقال في المثل الشعبي: "التصفيق لا يأتي من يد واحدة"، بل يجب أن يتظافر الجانبين في بناء تلك الأرضية التضامنية؛ ولهذا إذا ما ترجم الدّاعي هذه الاستراتيجية حينها ينبغي أن يكون حريصاً على أن "يحفظ عري التواصل، حتى يجلب إقبال المخاطب على سماعه وفهم مراده وتلقيه له بالقبول، طمعاً في أن يبادله نفس الحرص على التواصل و على الوصول إلى المنفعة المشتركة"[7].

---

[6] – الشرق الأوسط: العدد (**12573**)، **1 /3/ 2013** .

[7] – اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي: طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998م: 223.

المبحث الثاني:

الدراسات السابقة:

إذا ما تصفّحنا بطون أمّهات علماء الإرث اللغوي لا نجد دراسة بعنوان الاستراتيجية التضامنية، ولكن آليات وأدوات هذه الاستراتيجية نتلمّسها بوضوح في طروحاتهم؛ ولا سيما في وقفاتهم النحوية والبلاغية. ويمكننا القول: إذا ما استثمر تلك الآليات في الاستراتيجية التضامنية لسهّل دائرة فهم تلك الاستراتيجية بشكل أنضج، ولربّما لو وقف علماء الغرب على بذور تلك الجهود عند علماء المسلمين، لما احتاج هذا الوقت الطويل لتأصيل مضامين تلك الاستراتيجية في علم الاستعمال اللغوي.

أما هذا العلم في الغرب فقد برز نفسها بقوّة في ستّينات القرن الماضي، بعد أن أفرغ علماؤهم لدراسة اللغة في حيّز الاستعمال لا التقعيد والتفلسف اللغوي. ومن هنا، أسهبوا الطروحات في اللغة العملية. ولعلّ الاستراتيجية التضامنية قد أخذت جانباً مهمّاً في دراساتهم من هذا الإطار؛ قصد استثمارها في العملية الكلامية. وإنّ دراسة (براون وجيلمان) حول "ضمائر السلطة والتضامن" تعدّ من أوليات البحث والتنقيب عن هذه الاستراتيجية.

ثم توالت الدراسات عن هذا المضمار، فقد أغنت نظرية الوجه عند (براون وليفنسون) الاستراتيجية لتضامنية وجعلها تخطو نحو التنظير والتأطير، فقد جعلا الوجه هو رمز التعامل الخطابي. وقسّماه إلى ما يعني المرسل وما يعني المرسل

إليه. منوّهين إلى أنّه لا يمكن التلفّظ بالخطاب إلا باستعمال استراتيجية خطابيّة معيّنة. إذ يكون اختيار هذه الاستراتيجية وفقاً لمعايير ثلاثة[8]، هي:

1- البعد الاجتماعي بين المرسل و المرسل إليه، ويمثّل هذا المعيار (تشابه العلاقة).
2- العلاقة السلطوية بينهما، ويمثّل هذا المعيار (العلاقة المختلفة).
3- القيود التي تفرضها الثقافة التي ينتج فيها الخطاب.

وعلى هذا، كانت الاستراتيجيات العامة عندهما خمس استرايجيّات، هي:

1- استراتيجية التصريح.
2- استراتيجية التأدّب الإيجابي.
3- استراتيجية التأدّب السلبي.
4- التلميح.
5- الصمت.

أمّا (سكولن و سكولن) فقد قسّم استراتيجيات (براون و ليفنسون) السابقة إلى قسمين عامّين، هما[9]:

1- استراتيجيات التأدّب التبجيلي، التي تنمّ عن الاحترام والتعامل الرسميّ. ويتضمّن ذلك التأدّب السلبي، والتلميح، واستراتيجية الصمت.
2- أمّا الصنف الثاني فهو استراتيجيّات التأدّب التضامني، الذي ينمّ عن الصداقة الحميمة، والانتماء إلى الجماعة. وهي تتضمّن التصريح و التأدّب الإيجابي.

أمّا (لاكوف) فقد اقترحت قاعدتين، سمّتهما قواعد الكفاءة التداولية (The rules of pragmatic competence) ، إذ اعتمد خلالها على سياق انتاج الخطاب في تطابقهما، أو أولوية إحداهما على الأخرى، مصوّغاً القاعدتين كالآتي:

---

[8] -استراتيجيات الخطاب: 263-265

[9] - نقلاً عن المصدر السابق:264.

1- كن واضحاً.

2- كن مؤدّباً.

وشدّد لاكوف على ضرورة الاعتماد على بعض العناصر، حال تفضيل قاعدة على الأخرى، وكالآتي:

1- الناس الذين يتواصل المرسل معهم، وشعورهم نحوه، وكذلك رتبتهم الاجتماعية قياساً على رتبته.

2- الموقف في العالم الحقيقي الذي تجري فيه عملية التواصل، من حيث أهمية المعلومات التي يقصد المرسل تبليغها، وهل يمكن قصده في التبليغ، ومدى اتصاف سياق الفعل الكلامي بالرسميّة.

قرارات المرسل المبنية على الافتراضين (1، 2) أعلاه، فيما يتعلّق بالتأثيرات التي يرغب في تحقيقها من خلال الفعل التواصلي؛ وهل يريد تعزيز الفروق التراتبية بين المرسل والمرسل إليه، أم يريد محوها، أم ذلك لا يهمّه بتاتاً، وهل يريد أن يطبع المرسل إليه بطابع الأهمية أو التملّق أو الظرافة، أم يريد تغيير العالم الحقيقي أم لا؟ وغير ذلك من الأسئلة. ومعلوم أنّه انجاز تواصل الأفكار من خلال الوسائط اللغويّة.

المبحث الثالث

سلطة آليات وأهمية الاستراتيجية التضامنية في الخطابات القرآنية والسنة النبويّة

إنّ الاستراتيجية التضامنية لها دور قوي في استمالة المخاطب والمشاركة فيما تريد أن ترمي إليه من خلال الطروحات التي تريد إيصالها. وعلى الداعي أن يكون دقيقاً في اختيار تلك المفردات والاليات التي تعمل على تقريب المسافات؛ فضلاً عن الإحاطة الكاملة بتلك الكلمات التي تستعملها في الفضاء الخطابي؛ لإنّ "الوقوف على شيء من إيحاء الكلمة المعينة في النفس، ووقعها في المخيلة أو الذهن لا تقدّمه لنا المعاجم اللغوية، لأن الدلالة المعجمية المجردة ليست هي كل دلالة الكلمة، وإنما وراء الكلمات دلالات نفسية، ووجدانية لا يمكن الوقوف على آفاقها، أو الإحساس بها إلا إذا تمكنّا من معرفة دقيقة

لوظائف اللغة التعبيرية، والجمالية والأمرية، والاتصالية، والتواصلية"(10)؛ فضلاً عن الوظائف الانفعالية والوظائف غير اللغوية.

وإذا ما تأمّلنا تراجم أئمة الدعاة، والمتمثّلة في الرسل الكرام، تمكّنوا من ترجمة تلك الاستراتيجية خير تمثيل إذ أتوا بالحجج المنطقية والأدلّة الربّانية في سياقاتها ومقاماتها، وكانوا في ذلك ذا نفس طويل وإيمان قوي بخالق السموات السبع، وكان إيمانهم القوي بخالقهم هو الذي أعطاهم قوة خارقة للتأثير على الآخرين، أضف إلى ذلك، أنّ تلك التواضع والأدلة الكافية في مقاماتهم هو الذي صعّد من تحقيق الاستراتيجية التضامنية مع ماورائيّاتهم.

وقصد الوقوف على سلطة الاستراتيجية التضامنية وبيان أهمياتها نقف على بعض من آليات أساليبها:

1- **زيادة مساحة التعفّف بين الباث و المتلقي**: أي حال إيراد إبلاغ الرسالة الدعوية يستوجب من المرسل أن يضع نفسه بعيداً عن لغة الفرضنة، كأن يكثر الدّاعي من استعمال مفردات (يستوجب، يجب، عليهم الالتزام ب، التزموا ب، ألزموا الصمت، ....) أو استعمال كلمات تحمل في طيّاتها دلالات إيحائية سلبية كأن تكتب مقالاً في بلاد المسلمين، وتزخر مقالك بمفردات من قبيل (الإرهاب الإسلامي، التطرّف الديني، الأصوليين المتشدّدين، الإرهابيين، ....) . بل على العكس من ذلك لولادة الاستراتيجية التضامنية وعدم إجهاضها يفضل أن يكتب عبارات ومصطلحات لطيفة تأسر قلب المخاطب؛ بغية مشاطرتك وتفهمّك ومساندتك...وإن كان الطرف المقابل بالنقيض معك تماماً.

ومن هنا، أجاد الخليفة عمر بن عبد العزيز في توظيف قاعدة التعفّف مع الخوارج رغم معاندتهم له وعدم اتفاقهم في مسألة سياسية، ألا وهي إمامة المسلمين، إلا أنّ الخليفة لم يتّهمهم، و يسرع في استعمال لغة التعميم الإعلامي وتضليله كأن يتّهم واتهامهم بالمارقين و الخارجين عن السلطة كما شهدناه عند حكماء الشرق الأوسط حال حدوث الربيع العربي في المنطقة، فرغم أنّ الخليفة له سلطة

---

10 - الكفايات التواصلية والاتصالية، دراسات في اللغة والإعلام: د.هادي نهر، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1424هـ-2003م.:95، وينظر: الاتصال ونظرياته المعاصرة:190، 191.

في حسم الأمور إلا أنّه استخدم الاستراتيجية التضامنية؛ قصد استمالة قلوبهم، إذ عمل على توسيع دائرة التعفّف لتأسير قلوبهم ولا سيما حينما خاطبهم : "بلغني أنّك خرجت غضبا لله ولرسوله، ولست أولى بذلك مني، فهلم إلي أناظرك؛ فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك.." وكذلك: "أرأيتم الدين واحدا أم اثنين؟"، و "فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني؟"[11] .

و من هنا، فإنّ الخليفة من خلال تفهّمه لقراءة الآخر و كسب تضامنهم معه أن يدفع الخوف والحشمة عن الخصم لتمكينه من التشكيك في القضايا التي تعدّ مناط الخلاف. و الذي يجدر إلماعه في خطاب الخليفة أكثر، مراعاته السليمة من قبل الخليفة لمبدأ التعفّف خلال استعماله هذه الصيغ التعفّفية، ضمّنت الأرضية للطرفين حرية التصرّف في أدوار الكلام؛ الأوّل ينبري للدفاع عن رأيه، و الثاني يكون مستعدّاً لمواجهة العارض بدفعه للدفاع عن هذا الرأي[12].

2- **زيادة جغرافية التآلف و التآصر بين الباثّ و المتلقي:** وقصد ترجمة هذه الجغرافية في أرض الواقع يفضّل أن يستعمل مفردات تتحمّل في طيّاتها دلالة الألفة، ولا سيّما في الخطاب المرئي، كمفردات من قبيل:(**الأمّة، الإنسانية، كلمة سواء، دين الله، أيّها الناس، يا بنيّ، يا قومي، يا أحبّائي، يا ضيوف الرّحمن، ي أحفاد النبي،..... وهكذا دواليك**).

وعلى هذا، يحثّ الخالق البارئ رسوله على ضرورة التحلي بالحكمة الحسنة والرحمة وليونة القلب والابتعاد عن فضاضتها، كقوله تعالى: (**ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ**)[13]، وقوله تعالى:(**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِك**)[14].... فضلاً عن أن دعوة أهل الكتاب بخير كلمة اختاره الله، كان القصد منها تآلف وتقارب المسافات بين أهل الكتاب. فإذا أنت سيطرت على القلوب استسلمت العقول لك طواعية، وهذا ما يتجسد في هذه

---

[11] - جمهرة خطب العرب في عصور العربيّة الزاهدة: أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت- لبنان: 200/3.

[12] - تداوليات الخطاب السياسي: أ. نورالدين إجعيط، ط1، 2012، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع:- إربد- الأردن:145.

[13] - النحل:125.

[14] - آل عمران: 159.

الآية الكريمة (**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍۢ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**)[15] ...فما أحوجنا لمثل هذه الحجاجات في عصرنا الحاضر، فكثيرا ما تغيب استراتيجات الحجاج وسرعان ما نرفض الآخر، لا لشيء جوهري بل لأمر فرعي، على عكس حجاج القرآن، الذي يسجل لنا حجاجات فرعون وسيدنا موسى ونمرود وسيدنا إبراهيم في آن واحد... هذا، وبالإضافة إلى اتهامات المشركين سيد البشرية ب(ساحر، ومجنون،..) ولم يمنع القرآن من تسجيلها...

ومن أمثلة ذلك في الخطاب القرآني:

- **۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ.**[16]
- **كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًۭا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ.**[17]
- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًۭا طَيِّبًۭا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّۭ مُّبِينٌ.**[18]
- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍۢ وَٰحِدَةٍۢ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًۭا كَثِيرًۭا وَنِسَآءًۭ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًۭا.**[19]
- **وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ.**[20]
- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌۭ.**[21]

---

[15] – آل عمران: 64.

[16] – غافر: 41.

[17] – البقرة:151.

[18] – البقرة: 168.

[19] – النساء: 1.

[20] – الزخرف:63.

[21] – المؤمنون: 51.

- **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.**[22]

ولعلَّ ما ذهبنا إليه سارية في الخطاب الصحفيّ أيضاً...فعلى الإعلاميّ أن يبتعد نفسه عن تلك الدلالات التي تشوّه أرضية التآلف، وتصنع بيئة الانزياح والتضليل، كأن يستخدم الصحفي مفردة (استجواب بدلاً من الاستضافة، الجرائم بدلاً من التجاوزات، أزمة الخليج بدلاً من حرب الخليج، الخريف العربي بدلاً من الربيع العربي، البلطجيون بدلاً من الجيش النظامي.... وهلمّ جرّاً)

3- **أسلوب المكاشفة:** وهذا الأسلوب هو الآخر في بناء الاستراتيجية التضامنية، وهذا الأسلوب من العناصر المهمّة في التضامن الخطابي، وقد يستعمل للدلالة "على التقرّب، ويتفاوت الناس من إطلاع الغير على الأشياء العامّة الى كشف أدقّ الخصوصيات"[23]. وفي السياق القرآني يزخر أسلوب المكاشفة حال وضوح درجة القرابة بين طرفي العملية الخطابية، فالنبي يوسف (عليه الصلاة والسلام) صرّح ما لديه لملك مصر، من إمكانا كامنة تؤهّله لنجاح في هذا المنصب، وبما أنّه ذا علم بالألسن والحساب؛ لذا صرّح أهليته لأن يكون عزيز مصر، وينجو أهل مصر من تلك المجاعة التي تنتظر مصر، إذ إنّه كان في منطق القوّة، وهذا ما زاد من استراتيجية التضامن بينه وبين الملك، وهذا الخطاب يظهر جلياً في آيات من سورة يوسف، أما أسلوبه التصريحي في الذكر الحكيم فقد جاء في الآية الخامسة والخمسين من سورة يوسف:" **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**"24 (55). ولعل سيدنا يوسف (عليه الصلاة والسلام) أحسن استخدام قاعدة اللباقة والاستحسان حال مخاطبة الملك؛ وبالتالي اقتنع الملك بخطابه واستراتيجية التأدب الإيجابي الذي اتبعه عزيز مصر الجديد.

ولعلّ استعمال هذا الأسلوب قد يتطلب استثمار آليتي التواضع والسخاء؛ لكي يزيد الخطاب التواصلي نجاحاً أكبر حال إيراد الدعوة بأفضل السبل، وهذا ما اتبعه سيدنا موسى (عليه الصلاة والسلام) حينما طلب من ربّه أن يرسل معه هارون لمناظرة فرعون، قائلاً: "**وَأَخِي هَارُون هُوَ أَفْصَح مِنِّي لِسَانًا , فَأَرْسِلْهُ**

---

[22] - الجمعة: 9.

[23] - استراتيجيات الخطاب: 302.

[24] - سورة يوسف:55.

مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي "25. فإنّ إرسال هارون بالإضافة إلى أنّه أفصح منه لساناً، يقوي الاستراتيجية التضامنية، وأنَّ كلام الإثنين على الصدق يجد آذاناً صاغية أكثر، إذ جاء في تفسير الطبري: " وَقِيلَ : إِنَّمَا سَأَلَ مُوسَى رَبّه يُؤَيِّدهُ بِأَخِيهِ , لِأَنَّ الِاثْنَيْنِ إِذَا اِجْتَمَعَا عَلَى الْخَيْر , كَانَتْ النَّفْس إِلَى تَصْدِيقهمَا , أَسْكَن مِنْهَا إِلَى تَصْدِيق خَبَر الْوَاحِد"26 .

ومن هنا، فإن محاكاة السياق والمقام حال شروع الداعي بالمكاشفة يزيد شخصيته الدعوية رصانة؛ سيّما إذا ما ترجم مبادئ الإخلاص في الاستراتيجية التضامنية في حياته العملي والمهني، ولا يبخل بالتصريح حال استلزام المقام لذلك كما فعله سيدنا يوسف (عليه الصلاة والسلام) أمام الملك. وإذا لم يكن المقام مقام التصريح يفضل أن يستعمل لغة الكنايات، ويكثر مفردات من قبيل (كذا وكذا، كيت و ذيت، أو كم الخبرية والاستفهامية).

ومن أمثلة أسلوب المكاشفة والتصريح في الذكر الحكيم:

- **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍۢ.** 27
- **وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ.28**
- **(كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍۢ وَعُيُونٍۢ).29**
- **وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ.30**
- **قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ.31**

---

[25] - القصص:34.

[26] - الطبري: 20904

[27] - يونس:98.

[28] - المائدة: 116.

[29] - الدخان:25.

[30] -الزخرف: 62.

[31] - القصص:26.

- **قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾**.32

4- أسلوب التلقيب: ولعلّ هذا الأسلوب هو الآخر في زيادة مساحة الحبّ بين الطرفين، وإن الطرف الأوّل ينادي الآخر بأحبّ الألقاب والألفاظ؛ قصد استمالة المخاطب لما تريد إيصاله إليه، وجرّه إلى استدرار الأحاسيس. ومناداة الآخر بأحسن الألقاب والألفاظ التي هي من صميم الخطاب القرآني، فحينما يصف البارئ رسوله الكريم يمنّ على المسلمين به، ومن هنا، يزيد المسلمين محبّة على محبة لرسولهم الكريم، وتصل درجة تضامنهم له إلى القمّة، وكيف لا يصل إلى القمة فخالقهم من سبع سموات يتضامن مع رسوله، ويوظّف أجمل النعوت له، وحتى وصل الأمر بأن لم يبخل ببعض من نسمات صفاته لرسوله الخاتم، إذ يقول سبحانه وتعالى:" **لَقَد مَنِّ الله عَلىَ الْمُؤمِنينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِم يَتْلُواْ عَلَيهِمْ ءَاياتِهِ ويزكِّيهِمْ ويُعِلْمُهُمُ الكِتابَ والْحِكْمَة وإكَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِين**"[33]، وقوله تعالى:"**لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**"[34].

هذا، وأن أبا الأنبياء قد وظّف خير آلية الألقاب، ونادى أباه بـ(أبتي) وكما هو معروف أن مفردة (أبتي) من قبل الولد للوالد تزيد التضامن متانة وسبكاً في الفضاء التواصلي. فإنَّ شرك أبيه لم يمنعه من أن يختار خير استراتيجة اللقب لمخاطبة أبيه، المختلف عنه عقدياً وفكرياً، ولكن هذا لم يمنعه من إزالة اللقب بل بقي في دائرة التأدب الإيجابي خير بقاء، وأصر على مناداته بأبتي، وكما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا (٤٢) يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا (٤٣) يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ**

---

[32] - النمل: 29-35.

[33] - آل عمران: 164.

[34] - سورة التوبة: 128.

لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا (٤٥))[35]... وحينما خاطبه بشديد اللهجة المتمثلة في قوله تعالى (**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا**)[36] لم يمنعه في استمرار تلك الاستراتيجية الدعوية قصد إقناعه سبيل الرشاد...

5-إن استعمال الاستراتيجية التضامنية يقوّي وظيفة الخدمة و التعاون بين أبناء المجتمع؛ سيّما في المجتمع الإسلامي؛ حال استعمال مفردات من قبيل (**أبشر، يا أبا فلان، على عيني، على قلبي و رأسي، أبسط يديك، أبشر، أنعم صباحاً، هنيئاً لنا بـ.. وهكذا دواليك**).

هذا، وأنّ هذه الاستراتيجية في تقديم الخدمة والتعاون تزخر بها في خطب القدماء...فقد قال الخليفة أبو بكر الصدّيق (ر.ض) بعد حسم الخلافة لقريش لعمر (رَ.ض) " أبسط يدك يا عمر لنبايعك"، وحينها قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "والله لا أبسط يديّ و صاحب الغار بين ظهرانينا"... فبسط أبو بكر يده فبايعه عمر بن الخطاب و المسلمون جميعاً في حادثة بني سقيفة. و كذلك الأمر حال بيع (علي بن أبي طالب)، و كالآتي:"وأخبرنا علي بن مسلم قال حدثنا حبان بن هلال قال حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف قال أما أنا فأشهد أني سمعت محمد بن سيرين يقول إن عليا جاء فقال لطلحة ابسط يدك يا طلحة لأبايعك فقال طلحة أنت أحق وأنت أمير المؤمنين فابسط يدك قال فبسط علي يده فبايعه ...)[37].

وإنّ ذكر كل واحد باسمه يدل على تضامنية الخطاب بينهما؛ سيّما إذا كان إحداهما ذا سلطة وهيبة عالية. فكلّما زادت درجة الاقتراب بين الطرفين، وبعدما يؤكّد المرسل أنّ المناداة باسم الأوّل لا يؤثر على علاقاتهما، فلحذتئذ يجنح المرسل إلى استعمال هذه اللغة... وهذه الصيغة معروفة في اللغة العربية، حتّى وإن كان الخليفة في أو قوته إذا حدث الأمر عن أمر غير الرسميات لمالوا إلى هذه الاستراتيجية التضامنية، وقد يلحظ هذا جليّاً في أساليب الأمراء والمأمورين أيام الصدر الإسلامي وما بعده. فعلى سبيل المثال يميل الخليفة هارون الرشيد بالتخلي عن ألقابه في هذا النص المأثور:

"قال: فزلزلت عليهم الدار، وخرج الخادم فقال: لمن هذا الغناء؟ فقلت: لي. فقال: كذّبت، هذا غناء إسماعيل بن جامع+، فما شعرت إلا وأمير المؤمنين وجعفر بن يحيى قد أقبلا من وراء الستر الذي كان

---

[35] - مريم: 42-45.

[36] - مريم:46.

[37] - الموسوعة الشاملة، و متاح على الموقع الآتي: http://islamport.com/w/tkh/Web/2893/1263.htm

يخرج منه الخادم. فقال لي الربيع: هذا أمير المؤمنين قد أقبل عليك. فلما صعد السرير وثبت على قدم أمير المؤمنين أقبلها، فقال: ابن جامع؟ قلت: ابن جامع، جعلني الله فداك. قال: اجلس يا بن جامع، وجلس أمير المؤمنين وجعفر في المواضع الخالية. فقال لي: يا بن جامع؛ أبشر وابسط أملك؛ فدعوت له ...."[38]

ومن هذا النص، نتلمس مدى نجاعة الاستراتيجية التضامنية، إذ إنّ هذه الاستراتيجية تزيد متانتها وقوتها حال إبداء التواضع، وما فعله الخليفة هارون الرشيد لا يعدّ تنازلاً بل تصاعداً له، ويبرز مدى تواضعه وتضامنه مع من هو أقل مرتبة وشأناً في الحياة الدنيوية.

ومن أمثلة ذلك في الخطابات القرآنية، نذكر منها:

- **قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍۢ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾.**[39]

- **لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍۢ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ.**[40]

- **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ.**[41]

- **يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ.**[42]

- **مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًۭا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًۭا كَثِيرَةًۭ ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.**[43]

- **ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌۭ.**[44]

---

[38] – أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني: جمع الجواهر في الملح و النوادر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط2: 125-128.

[39] – الحجر: 53-55.

[40] – المائدة:28.

[41] – فصّلت:30.

[42] – البقرة:40.

[43] – البقرة:245.

[44] – الرعد:26.

5- استراتيجية استثمار الضمائر اللغوية و أسماء الإشارة والتكرار اللغوي

لقد تمكّن إمام البلغاء والفصحاء من استثمار هذه الاستراتيجية خير تمثيل، فقد راعى جلّ السياقات اللغوية والمقاميّة، إذ ترجم المبادئ التأدّبية والأخلاقية خير ترجمة حينما التقى الجمعان في معركة بدر، وحينما أذن الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم والمهاجرين في الدفاع عن أنفسهم بعد تحمّل المهاجرين ورسولهم كل أصناف وألوان العذاب من قهر وتشريد وتعذيب ... وكما جاء في القرآن الكريم: " **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ**"45، ولحظة التقاء الجمعان على ماء بدر... كان الرسول الكريم في مقدمة جماعة المسلمين، ويملي عليهم قبلها ولحظتها النصح وتثبيت العقيدة الروحية؛ لكي تهيّء أرضية التضامن في قلوبهم، ويكون الله والرسول أحبّ إليهم من كل ما يمتلكون وحتى من أنفسهم.

فالرسول الكريم بقيادته الميدانية الحكيمة -ذات الأسوة الحسنة بالمنطق الربّاني- كان عزيزاً عليهم و رؤوفاً رحيماً بحياة ومستقبل هذه العصابة من المسلمين الأوائل، فحينما دقّت ناقوس الحرب طلب الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) المشورة في معركة أحد، وأقبل الرسول يختبر أصحابه فوجد منهم إيمانا قوياً راسخاً متضامنين جسداً وروحاً مع هذه الرسالة السماوية والتضحية من أجله...

فالمهاجرون كلّهم كانوا يفدون أنفسهم للرسالة الربّانية، واستجابوا بالقبول القلبي والروحي مع المصطفى. وهذا ما ينعكس جليّاً في قول الصديق والفاروق؛ فضلاً عن المقداد بن الأسود، إذ يبدع الأخير في ترجمة الاستراتيجيات التضامنية في هذا الموقف العصيب مع رسوله الكريم، لا سيّما حينما قام ،وقال: "يا رسول الله ، امض إلى حيث أمرك الله ، فنحن معك ، والله ، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)، [سورة المائدة : 24] ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ! فوالذي بعثك بالحق ، لئن

---

[45] - الحجّ: 39-41.

سرت بنا إلى برك الغماد يعني : مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ثم دعا له بخير"[46].

ومن هنا، أراد الرسول الكريم تحقيق خطابه التضامني على كل المسلمين لأنّ المسلمين كالجسد الواحد في الإسلام، وهذا ما يتضح جليّاً من خلال وقوفه وتكراره تعبير "**أشيروني أيّها الناس**"، إذ إنّ هذه العبارة تمسّك بها الرسول الكريم لتحقيق مبدأ الاستراتيجية التضامنية على أمّته ككلّ متكامل، فهو لم يعمل على تحقيق التضامن مع قبيلة دون غيرها، فالثلاثة الذين قاموا كانوا من المهاجرين، ولذا يريد الآخرين التضامن معه؛ سيّما أنّ المعركة غير متكافئة، فالمسلمون عددهم ثلاثمائة، وأنّ الكفّار عددهم ألف، وأنّ المسلمين ليس معهم إلا فرس واحد والكفار معهم ثلاثمائة فرس، فموازين القوة كانت لصالح الكفار بسبة مائة بالمائة، فالأمر صعب والمواجهة صعبة، ومن الممكن أن يموت الجميع إذا لم تترجم الاستراتيجية التضامنية في الفضاء الخطابي والواقع المعركي[47].

وعليه، فالرسول الكريم عمل على استراتيجية الاحترام والتأدّب للمهاجرين على أنّ خروجه كان لاسترداد حقوقهم المسلوبة من قبل كفّار قريش، ومن جهة أخرى وأهم من الأولى الأنصار لأنّهم لم يهجّروا وكانوا في مدينتهم. وإن تكرار الرسول الكريم لعبارة (أشيروني أيها الناس) يدلّ على مدى احترام الرسول الكريم للرأي وقبول الرأي الآخر، وهذا ما يرتكح عليه فلسفة الإقناع اللغوي الحديث في الفضاء الخطابي. وقد عمل الرسول الكريم بهذا المبدأ لأنّه متمّم لمكارم الأخلاق، كما وأنّه أراد تأسير القلوب قبل العقول طواعية لا كراهية. ويضاف إلى هذا، أنّ العهد الذي كان بينه وبين الأنصار على حمايته كان داخل المدينة وليس خارجها، فهو (صلى الله عليه وسلم) لن يقول لهم: هيّا لنقاتل فيطيعوه فحسب، بل يحترم آراءهم.

ومن هنا فقد ترجم (صلى الله عليه وسلم) مبدءاً مهمّاً من قواعد فلسفة استراتيجيات التضامن ألا وهو شرط الإخلاص، إذ إنّ هذا المبدأ تتبؤور في التضامن المنزّه عن كل غرض؛ فضلاً عن أنّ الإخلاص في هذا الشرط يفضّل أن يدركه المرسل إليه، أو يلمسه في الخطاب. إذ يتلخّص جوهر هذه القاعدة في أن يكون "تودّدك للغير متجرّداً من أغراضك بتلوّناتها، ويقتضي بأن يقدّم المتكلم حقوق المخاطب على حقوقه، وليس في هذا التقديم حطّ من مكانة المتكلّم ولا إضاعة لحقوقه؛ فلا يحطّ هذا التقديم من قدر المتكلّم"[48].

---

[46] - تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر بن محمد بن جرير الطبري(ت310هـ)، تحقيق: محمّد شاكر، دار المعارف- مصر: ص **15720**.

[47] - http://www.amrkhaled.net/newsite/articles1.php?articleID=NTE2OQ==&id=5169

[48] - اللسان والميزان: طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998: 223.

وعلى هذا، كان قوله صلى الله عليه وسلم قد أظفر في تحقيق التضامن الفعلي من قبل الأنصار وعلى لسان سعد بن معاذ، حينما قال: "كأنّك تريدنا يا رسول الله". فقال: "نعم" فقال: " يا رسول الله فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله! فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشّطه ذلك، ثم قال : سيروا على بركة الله وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غدا[49]" .

وتأسيساً على استثمار الرسول الكريم لكيفية إبداء التضامن الخطابي وبعد الأخذ بالعدّة والأسباب تمكّن من فتح مغاليق القلوب وإضاءتها بالأمل الربّاني، وحينما تحقّق التضامن الكوني تداخل التضامن الإلهي من السموات السبع، إذ جعل الله من إيمان المؤمنين جُنّة، ومن خوفهم أمنة، ومن ضعفهم قوّة، ومن قلتهم كثرة، ومن صبرهم نصرة. أضف إلى ذلك، إنَّ الله سبحانه وتعالى قد جسّد وصوّر التضامن الإلهي مع المسلمين حينما يتضامنون مع رسولهم الكريم لنصرة دين اللّه، وكما يتضح جليّاً هذه المشاهد التضامنية في قوله تعالى: " وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ [50].

وعليه، فإنّ استثمار توظيف الضمائر وأسماء الإشارة في الآيات القرآنية ؛ فضلاً تعابير الرسول الكريم والصحابيين الجليلين (المقداد بن الأسود، و سعد بن معاذ) زادت في حدّة تماسك النصي، وولدت البنية الأساسية؛ لتحقيق فلسفة الاستراتيجية على أتمّ وجهها.

ومن هنا، على الداعي ضرورة استثمار الضمائر وأسماء الإشارة في محلّها، فحينما تخاطب الناس بضمير الجماعة تحسب نفسك واحداً من هذه الجماعة، وهذا الاستعمال تزيد اللحمة التآصرية في الفضاء الخطابي، وتتحقق أرضية التضامن بجاذبيّة أكبر، فالدّاعي إذا ما وفّق في آليات الضمائر والإشارة في مواطنها تسهّل فتح مغاليق القلوب بحيث يكون كالعجينة عنده تخبز بها بالوجه الذي يريدها؛ وهذا

---

[49] - تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر بن محمد بن جرير الطبري(ت310هـ)، تحقيق: محمّد شاكر، دار المعارف- مصر: ص **15720**.

[50] - سورة آل عمران: 123، 124.

ما حقّقه الرسول الكريم في خطاباته خير تمثيل، فهو لم يجرح شخصاً قط، وإذا أراد أن يتحدّث عن قبيلة أو شخص صدر عنه سوء كان يذكره بتعابير ((ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا))، لأنّ التصريح بالأسماء يقتل الاستراتيجية التضامنية، ولكنّ استعمال أسلوب التلميع لا التصريح أسلوب تضامني لطيف يجتذب له القلوب، وهذا ما يتقاطع مع صميم الخطابات القرآنية. وكان يستخدم فلسفة مناداة الآخرين بأحبّ الأسماء وأجملها، منبثقة من الفلسفة القرآنية....

ولعلّ إذا ما تصفحّنا لغة اليوم في كيفية توظيف الضمائر، وأتينا إلى واقعنا المعاصر نرى أنّه إذا ما تمكّن السيّاسي من استخدام هذه الضمائر في مواطنها، وقتئذ يستطيع الرئيس أن يتضامن معه شعبه، ويجعلهم "يؤمنون بصواب القرارات التي اتخذها، ويترجم نجاحه إذا ما تمكّن الرئيس من إجادة حسن استعمالاته للضمائر، سيّما أنا/ نحن، في خطاباته، سواء الشاملة والقاصرة، وهذا شيء ملموس في الحياة السياسية، و لا غرابة فيه".[51]

ومن أمثلة استثمار الضمائر وأسماء الإشارة في السياقات القرآنية، والتي كفّلت في توطيد ماهيات فلسفة التضامنية في الإطار التواصلي، نذكر منها:

- (قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)52.
- (إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)53.
- ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ *يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا *هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ *أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[54]
- (إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ). 55

---

[51] – John Wilson: Politically speaking, basil backwell ltd, Cambridge, Massachusetts, USA, 1990,p50.

[52] – سورة يوسف: (**90**) .

[53] – سورة آل عمران:62.

[54] – سورة الطور: 12-16.

[55] – سورة الأنبياء: 106.

هذا، وإنَّ استخدام أسماء الإشارة والضمائر تزيد من تماسكية هذه الاستراتيجية وتقوية أركانها اللغوي، فحينما يؤخر ضمائر الشأن فإنّ مفسّره يكوّن الجملة بعده، مؤكّداً أبو حيان حال حديثه عن هذه الضمائر أنّ كل ضمير شأن "هو ضمير غائب يأتي صدر الجملة الخبرية، دالّاً على قصد المتكلم؛ فضلاً عن استعظام السامع حديثه"[56].

أضف إلى ذلك، فإن العرب من عادتهم استعمال ضمير الشأن من ضمن تلك الأدوات الإشارية التي تبلور التضامن، فالعرب إذا "أرادوا ذكر جملة من الجمل الإسمية أو الفعلية فقد يقدّمون قبلها ضميراً يكون كناية عن تلك الجملة، وتكون الجملة خبراً عن ذلك الضمير وتفسيراً له، ويوحّدون الضمير لأنّهم يريدون الأمر والحديث، لأنّ لكلّ جملة شأنٌ وحديثٌ. ولا يفعلون ذلك إلا في مواضع التفخيم والتعظيم"[57].

وتأسيساً على هذا، فإنَّ الصبر وتقوى الله كفيلان لأن يمدّ الله عباده بالنصر المبين، فالرّسول الكريم من خلال بثّ روح التضامن بين المسلمين وبالاستفادة من تلك الفصاحة ومراعاة السياق والمقام؛ علاوة على الإيمان اليقيني بالنصر الإلهي وترجمة مبدأ (إن الله يكون في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه). وحتّى لتظافر التضامن يؤكّد في حديثه الكريم "إنّ الكلمة الطيبة صدقة"، ومتى ما عمل المسلمون باستراتيجيات التضامن القرآن والمجسّد في سيرة الرسول الكريم سيكون النصر حليفه.

هذا، و إنّ المدد الإلهي لا يقتصر في بدر فقط، فحتّى في حياة الرسول الكريم غير معركة البدر أعيد التضامن الإلهي مراراً وتكراراً ما دام المسلمون يتسلحون بالصبر والتقوى، فإن التضامن الإلهي يكون حليفهم، فقد جاء في تفسير الطبري :" حدثني محمد بن عمارة الأسدي قال : حدثنا عبيد الله بن موسى قال : أخبرنا سليمان بن زيد أبو إدام المحاربي ، عن عبد الله بن أبي: كنّا محاصري قريظة والنضير ما شاء الله أن نحاصرهم، فلم يفتح علينا، فرجعنا، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فهو يغسل رأسه، إذ جاءه جبريل صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمّد، وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها! فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخرقة ، فلف بها رأسه ولم يغسله ، ثم نادى فينا فقمنا]ص[179 :كالين معيين لا نعبأ بالسير شيئا ، حتى

---

[56] - السيوطي: همع الهوامع، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418 هـ:1/ 224.

[57] - شرح المفصّل، ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت:125/4.

أتينا قريظة والنضير ، فيومئذ أمدنا الله عز وجل بثلاثة آلاف من الملائكة ، وفتح الله لنا فتحا يسيرا ، فانقلبنا بنعمة من الله وفضل"[58].

6- انتقاء جمالية المفردات والاحتراز من المفردات البذيئة

إنّ المفردات لها أثر بارز في نموّ الاستراتيجية التضامنية، فبالكلمة يمكنّك أن تحطّم الملايين، فالكاريكاتورات المسيئة للرسول الكريم حطمّت نفسية الملايين من المسلمين. وإنّ جرح الكلمة أعمق وأشد مضاضة من جرح السهام المهنّد.

وعلى هذا، يعلمّنا الخطاب الربّاني أن نكون جميلاً حتى في اختيار المفردات، لا التلفّظ بها بلا هوادة وتفكير، ويعلّم المسلمون كيفية انتقاء المفردات؛ لكي يخاطبوا العقل الباطن قبل الظاهر، ويعملوا على قبول الناس للدعوة لا النفور منها، ويعملوا بمبدأ الحكمة والموعظة الحسنة، وذلك بالوجه الحسن الطلق برفق ولين وحلاوة الخطاب؛ فضلاً عن أن دعوة أهل الكتاب بخير كلمة اختاره الله، كان القصد منها تآلف وتقارب المسافات بين أهل الكتاب. فإذا أنت سيطرت على القلوب استسلمت العقول لك طواعية، فعندما يريد الخالق دعوة الناس يعمّم الدعوة، وينادي معشر العالم بـ(يا أيّها النّاس)؛ لأن الدعوة إلى عبادة خالق الكون عالمية ليست مقصورة على المسلمين وحدهم. فالخالق البارئ باستعمال مفردة الناس وسّع دائرة الدعوة لتشمل جميع البشرية؛ وبهذا الاستعمال يتضامن عامّة الناس أكثر من ذلك النداء الربّاني، وهذا ما يتجسد جليّاً في هذه الآية الكريمة (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ)[59] .

فما أحوجنا لمثل هذا التضامن الخطابي في الخطاب الإلهي لمحاججاتنا، وما أعظم حياتنا إذا ما ترجمنا فلسفة الخطاب الربّاني في مناداة الآخرين وقرآءة الآخرين، وابتعدنا عن لغة التخوين والتكفير والتفسيق والتضليل...فما أكثر غياب استراتيجيات الحجاج في عصرنا المعاصر! وسرعان ما نرفض الآخر، لا لشيء جوهري بل لأمر فرعي، على عكس حجاج القرآن، الذي يسجل لنا حجاجات فرعون وسيدنا موسى ونمرود وسيدنا إبراهيم في آن واحد... هذا، وبالإضافة إلى اتّهامات المشركين سيد البشرية بـ(ساحر، ومجنون،..)، ولم يمنع القرآن من تسجيلها...

---

[58] تفسير الطبري، دار المعارف، المكتبة الإسلامية: – **7758**.

[59] – الحجرات:13.

وفي نفس الوقت يجب الاحتراز من الكلمات ذات الدلالات السلبية، ذات الإيحاء السلبي على جمهور المتلقين. وهذا ما يعلّمنا الخطاب الربّاني، وكما يتضح ذلك جليّاً في قوله تعالى:" **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** "[60]. إذ جاء في تفسير هذه الآية حدثني موسى قال، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط, عن السدي: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا**)، كان رجل من اليهود – من قبيلة من اليهود يقال لهم بنو قينقاع – كان يدعى رفاعة بن زيد بن السائب – قال أبو جعفر: هذا خطأ، إنما هو ابن التابوت، ليس ابن السائب – كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم, فإذا لقيه فكلمه قال: (133) أَرْعِنِي سمعك، واسمع غير مسمع = فكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: " اسمع غير مسمع ", كقولك اسمع غير صاغر، وهي التي في النساء مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ [سورة النساء: 46]، يقول: إنما يريد بقوله طعنا في الدين. ثم تقدم إلى المؤمنين"[61].

نتائج البحث

وبعد جولة علمية رحبة في فلسفة الاستراتيجيات التضامنية في الخطابات القرآنية، توصّل الباحث إلى جملة نتائج، ولعلّ أبرزها:

1- إنّ فلسفة الاستراتيجية التضامنية تكمن في تقريب المسافات بين الباثّ والمتلقي؛ متخذاً من المبادئ التأدب أرضية خصبة لصنع هذه الاستراتيجية في التواصل الخطابي. ومن هنا يتأصّل النهج الاحترامي أكثر بين الباث والمتلقي؛ فضلاً عن تعميق اللحمة التواصلية بينهما. وحينها تسهّل للمخاطب فتح مغاليق قلوب المرسل إليه.

---

[60] – البقرة: 104.

[61] – تفسير الطبري: 1738.

2- إذا ما ترجمنا هذه الاستراتيجية في الواقع الدعوي و التواصلي، نبتعد عن لغة التكفير والتخوين ، ونميل إلى لغة تأسير مغاليق القلوب قبل نوافذها... فما أحوجنا إلى هذه الاستراتيجيات لإعادة صنع الخطاب الإسلامي في بوتقة الحكمة و الموعظة الحسنة الربانية ثانية إلى أرض الواقع بعد أن هجّرنا، وأضحت من أخبار كان...!

3- إذ ما روعي هذه الاستراتيجية في مسارها الصحيح تتولّد فلسفة الترابط المنطقي بالحجج التراتبية. ومن هنا، يتمكّن المرسل من إبعاد صفة الكراهية والقراءات الخاطئة عند المتلقي، فعنده تتآصر أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع، فتكون، إذ ذاك، أقدر على التأثير في توجيه سلوكه واعتقاد المخاطب، ولكأنه يعاينها رأي العين.

4- تعدّ قاعدة التعفّف ركيزة أساسية في استقامة النهج التضامن. ومن هنا، أجاد الخليفة عمر بن عبد العزيز في توظيف قاعدة التعفّف مع الخوارج رغم معاندتهم له وعدم اتفاقهم في مسألة سياسية، ألا وهي إمامة المسلمين، إلا أنّ الخليفة لم يتّهمم، و يسرع في استعمال لغة التعميم الإعلامي وتضليله كأن يتّهم واتهامهم بالمارقين و الخارجين عن السلطة كما شهدناه عند حكماء الشرق الأوسط حال حدوث الربيع العربي في المنطقة، فرغم أنَّ الخليفة له سلطة في حسم الأمور ألا أنه استخدم الاستراتيجية التضامنية؛ قصد استمالة قلوبهم، إذ عمل على توسيع دائرة التعفّف لتأسير قلوبهم ولا سيما حينما خاطبهم

5- إن شرط الإخلاص مهم في الاستراتيجية التضامنية، فعلى الداعي أن يستثمرها حال توظيف آلياته الخطابية، ويتخذ الخطاب القرآني آلية خصبة للتحلّي به. ففي الخطاب القرآني نرى أنّ خالق الأكوان يختار خير آلية لمناداة البشرية جمعاء إلى صراطه المستقيم، ويعلمنا هذا النهج السليم حال دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، وهذا ما يتجسّد في هذه الآية الكريمة (**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**)[62]. فإذا ما وظّفت هذه الآلية، وذلك من خلال دعوة أهل الكتاب بخير كلمة اختاره الله، تتآلف القلوب وتتقارب المسافات بين الداعي وأهل الكتاب. فإذا أنت سيطرت على القلوب استسلمت العقول لك طواعية.

---

[62] – آل عمران: 64.

6- إنَّ الطرف الأوّل ينادي الآخر بأحبّ الألقاب والألفاظ؛ قصد استمالة المخاطب لما تريد إيصاله إليه، وجرّه إلى استدرار الأحاسيس. وإنَّ مناداة الآخر بأحسن الألقاب والألفاظ هي من صميم الخطاب القرآني، فحينما يصف البارئ رسوله الكريم يمنّ على المسلمين به، ومن هنا، يزيد المسلمين محبّة على محبة لرسولهم الكريم، وتصل درجة تضامنهم له إلى القمّة.

7- إن آلية الضمائر وأسماء الإشارة إذا أجيد استخدامها في مشاهدها تعضد فلسفة الاستراتيجية التضامنية في الفضاء الخطابي، وهذا ما حققه الرّسول الكريم في أكثرية خطاباته مع أصحابه الكرام، ولعلّ يوم التقاء الجمعان الذي وقف عليه البحث كان واحداً من تلك التوظيفات الخطابية من قبل رسولنا المصطفى.

8- إنّ مناداة كل واحد باسمه في سياقاتها التي تقتضيها تدل على تضامنية الخطاب بينهما، سيما إذا كان إحداهما ذا سلطة وهيبة عالية. فكلّما زادت درجة الاقتراب بين الطرفين –وبعدما يؤكّد المرسل أنّ المناداة باسم الأوّل لا يؤثر على علاقاتهما– فلحذئتذ يجنح المرسل إلى استعمال هذه اللغة...

توصية الباحث:

نتمنّى من اللغويين و متخصصي الشريعة، أن لا يبخلوا في تأصيل و تأطير البذور العصرية لهذا المنهج؛ و ترجمتها حال محاوراتهم و خطاباتهم الاقناعية مع الآخرين مهما كان رتبته و هويته و عنوانه...فهذا المنهج لا يزال في طورها البدائي ويحتاج إلى تقعيد أشمل في التراث الإسلامي؛ فضلاً عن عالمنا المعاصر...كما وأنّه لم يتخذ نصيباً وافياً من الدراسات الأكاديمية...ومن هنا أضحى الاهتمام بمثل هذه الدراسات اللغوية المعاصرة وتأصيلها بالتراث الإسلامي حاجة ماسّة؛ بل وأصبحت من تلك الضرورات التي يجب أن لا يتوانى كل من أراد الدعوة الإسلامية...